أهل العلم والحكم

في ريف فلسطين

للأستاذ أحمد سامح الخالدي

يرى المتتبع لتاريخ فلسطين ، أن الريف كان شاهداً لكثير من المعارك والحوادث الجسام . وقد ضمت تربته المقدسة رفات الكثيرين من الصحابة والتابعين الأكرمين .

وقد رأينا أن نسجل على صفحات مجلة الرسالة الغراء ما عثرنا عليه في المصادر العربية ، مما يجهله الكثيرون .

ونرجو أن يتسع المجال لنشر ما توصلنا إليه ، فيرى القراء الكرام ، ما أخرجه هذا الريف من رجال العلم والحكم في مختلف العصور ، وما تغنى به فحول الشعراء منذ القرن الهجري الأول حتى زوال الدولة العثمانية .

وقد شهد هذا الريف (أجنادين) و (طاعون عمواس) و (ومقتلة الابوبيين) عند نهر أبي فطرس (العوجا) و (حطين) التي هزم فيها الأفرنج ، (وعين جالوت) التي قضى فيها على التتار ، إلى غير ذلك من الحوادث والمعارك الفاصلة في التاريخ العربي

على أن الريف قد حرك خيال الشعراء ، فكان لشعر جرير والمتنبي ، وليلى الأخيلية ، وجميل ، منه نصيب أي نصيب .

ونحن نعلم ونحن نكتب هذه السطور أن بعض الجهلة والمغرضين من الكتاب ، والناصوم ، قد شوهوا جمال هذا الريف ، وقللوا من شأنه ، كما نعلم أن أهله قد نسوه ونبذوه وأهملوه فأصبحت كلمة (فلاح) أو (قروي) مرادفة لكلمة جاهل أو محتقر ، حتى صار أبناء الريف أنفسهم يشعرون أنهم من طينة غير طينة أبناء المدن المترفين . ومشى مع هذا شعور بالضعة والمذلة تملك النفوس القروي وطغى عليه ، فصار إذا ما رأى طالباً نال شهادة الاجتياز إلى التعليم العالي رأى في ذلك أمراً عجباً ؛ وإذا ما سمع باسم عالم ديني يشغل مركزاً في القضاء أو الحكم استغرب وتعجب ، كأنما العلم وقف على المدن والحواضر دون الريف ، فكان من جراء هذا الشعور المغلوط أن تشبع أبناء المدن بشعور مبالغ فيه في تقدير قيمة المدن إذا قيست بالقرى ؛ فكأنما العلم منشؤه المدن ، وكأن الفلاح إنما هو أداة حراثة وحصاد يجد ويشقى لينعم بآثار جهده أبناء المدن وهم قاعدون .

على أن الذي ينعم النظر يرى أنه كان لأبناء الريف في فلسطين القدح المعلى في شتى ميادين العلم والإدارة والقضاء في مختلف العصور . إذ كانوا منذ القرون الأولى ما يزالون حملة العلم لا في فلسطين فحسب بل نقلوا مشعلهم معهم إلى ديار الشام ومصر وسائر البلدان العربية .

ونكتفي الآن أن نسجل بعض أسماء من أبناء الريف الفلسطيني فنذكر الحسن اليازوري رئيس وزراء الدولة الفاطمية (القرن الخامس) وقاضي قضاتها وداعي دعاتها وهو من أبناء يازور ، قرية على طريق يافا .

بل لنعد قليلاً إلى القرنين الأول والثاني الهجريين ، فنذكر موسى بن نصير فاتح قبرس وقائد معاوية ، وفاتح الأندلس فقد سبي والده من جبل الخليل وهو اللخمي الفلسطيني الريف ، ثم الربيع بن يونس أبو فروة حاجب المنصور العباسي بأبي بغداد ووزيره فهو من جبل الخليل أيضاً . وتعال إلى عالم الأدب فلا تنسى أن تذكر عبد الحميد الكاتب الفيراني ، نسبة إلى فيرا قرية ، وقد اعتبرها ياقوت قرية الوزير الأموي ، الكاتب المنشئ ، كما تذكر القاضي الفاضل البيساني نسبة إلى بيسان ، المدينة الريفية الفلسطينية مستشار صلاح الدين ، المؤرخ المنشئ البليغ والمصلح العمراني المجاهد الذي قال صلاح الدين عنه إنه لم يفتح البلاد إلا بقلمه .

بل لقد أخرج الريف الفلسطيني عدداً من الأسر العلمية التي ساهمت أكبر مساهمة في الحركة الفكرية في القرون الوسطى في فلسطين والشام ومصر ، فمنهم بنو كنانة العسقلانيون ، وقد تفرقوا بعد خراب عسقلان بعد القرن السادس فكان لهم فضل عظيم في نشر العلم والفقه واللغة . ومنهم بنو غانم المقدسيون (من يورين) و جبل نابلس الذين أسلمهم صلاح الدين خانقاه في القدس فظل نجمهم يسطع حتى القرن العاشر . ومنهم بنو قدامة الجماعيليون ، من جماعيل جبل نابلس ، الذين نزحوا إلى دمشق في القرن السادس فأسسوا فيها الصالحية ومدرسة أبي عمر . فكانت

مركزاً هاماً لتدريس الفقه الحنبلي خاصة مما كان له أبلغ الأثر في دمشق والشام والعالم الإسلامي عامة .

بل ماذا نقول فيما أخرجته (رامين) في جبل نابلس مما سيطلع عليه القارىء فيما بعد ، أو ما ساهمت به (مردا) من العلماء والعالمات حتى كادوا يحتكرون العلم في تلك العصور الغابرة ويحملون مشعله دون سواهم .

هذا وقد أخرج الريف الفلسطيني عشرات بل مئات من المؤلفين والأدباء ، فهذا الجمال البيتي (نسبة إلى بيت من أعمال الرملة) يكتب في الألفاظ المعربة ، وهذا المحبي صاحب سلك الدرر يقتبس من الحسن البوريني (نسبة إلى بورين جبل نابلس ، ويعتبره مرجعه ، ويعترف له بذلك في مقدمة كتابه النفيس وهو أعظم مراجعنا عن الحركة الفكرية في القرن الحادي عشر في هذه الديار .

في علوم القرآن ، والفقه ، ورواية الحديث ، وفي التصوف والأصول والفرائض ، وعلم الكلام والمذاهب الأربعة ، وفي علوم اللغة ، من قواعد ونثر ونظم ، وفي إنشاء الرسائل ، وفي التاريخ والطبقات والرحلات بل وفي علوم النجوم والرمل والزايرجا ، في جميع هذه العلوم التي تؤلف مادة العلوم الإسلامية منذ القرون الأولى ساهم أهل الريف في فلسطين مساهمة تضعهم في الصف الأول من خدمة الثقافة والعلوم في هذه الديار .

وقد استثنينا من بحثنا المدن الفلسطينية الكبرى كالقدس ، والرملة ، وغزة والخليل ، ونابلس ويافا وعكا وصفد ، واعتبرنا أرسوف وقيسارية وعسقلان[1] من بلدان الريف لا المدن .

ولم نستثن الناصرة على اعتبار أنها كانت قرية من أعمال صفد ، وحيفا لأنها كانت بليدة ، وبيسان وهي أقرب إلى المدن الريفية منها إلى المدن والقصبات .

وقد رتبنا قرى الريف ، على الحروف الأبجدية ليسهل الرجوع إليها ، واعتمدنا معجم ياقوت كأساس للقرى العربية ، كما أثبتنا غير ذلك من القرى مما ورد ذكره في المصادر العربية الأخرى .

(١) في السبكي ج ٢ — ص ٢ . سمع البخاري في قيسارية وعسقلان في أوائل القرن الثالث .

مشاهير فلسطين ، وبقاعها ، وأنهارها ، وجبالها في المصادر العربية :

أجناد الشام[1] : لما فتح العرب الشام قسموها إلى خمسة أجناد وهي جمع جند ومنها جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين . قال ابن جابر اختلفوا في الأخبار فقيل سمي المسلمون فلسطين جنداً لأنه جمع كورة ، والتجند التجمع ، وجندت جنداً أي جمعت جمعاً ، وكذلك بقية الأجناد . وقيل سميت كل ناحية بجند لأنهم كانوا يقبضون أعطياتهم فيه . قال الفرزدق :

فقلت ما هو إلا الشام تركبه كأنما الموت في أجناده البترُ

وجاء في معجم ياقوت ج ٦ — ٣٩٧ عن فلسطين ما يأتي : «العرب في إعرابها على مذهبين : منهم من يقول فلسطين ويجعلها بمنزلة مالا ينصرف ويلزمها الياء في كل حال فيقول هذه فلسطينُ ورأيت فلسطينَ ومررت بفلسطين . ومنهم من يجعلها بمنزلة الجمع ويجعل إعرابها بالحرف الذي قبل النون فيقول هذه فلسطون ورأيت فلسطين ومررت بفلسطينَ . كذا ضبطه الأزهري والنسبة إليه فلسطيّ . قال الأعشى :

ومنك خَوْدٌ بادن قد طلبتها وساعيت مسعياً لدنيا وشأنها
متى تُسق من أنيابها بعد هجعة من الليل شرباً حين مالت طلاتها
تصله فلسطياً إذا ذقت طعمه على زيذات التي حسٌ لثاتها

وهي آخر كور الشام من ناحية مصر قصبتها بيت المقدس ، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان ويافة وبيت جبرين[2] أولها رفح من ناحية مصر وآخرها اللجون (مجرو — أو تل المتسلم) من ناحية الغور عرضها من يافا[3] إلى أريحا نحو ثلاثة أيام ، وزغر (بحيرة لوط

(١) معجم البلدان ج ١ — ١٢٥

(٢) عاد ياقوت فاعتبر بيت جبرين (بليداً بين بيت المقدس وغزة) كما قال عن قيسارية (أنها في زمانه أشبه بالقرى منها بالمدن) وأما عن أريحا فقال تحت كلمة الغور ، (ومن قراه أريحا .)

(٣) يكتبها ياقوت أحياناً بالهاء (يافه) .